

طريق الإنسانية إلى الله

للأستاذ الكبير عباس محمود العقاد

من أكبر علماء التاريخ في زماننا ،
أن لم يكن من أكبر علمائه في جميع
الازمنة ، وهو الأستاذ « أرنولد
توينبي » صاحب الكتاب المشهور
المسمى « بدراسة في التاريخ »

بدأ المؤلف العلامة تأليف هذا
الكتاب في سنة ألف وتسعمائة
وإحدى وعشرين ، بعد نشوب
الحرب العالمية الأولى بسنتين ، وأنه
وأصدر آخر أجزاءه قبل ختام السنة
الماضية ، فأنقضى عليه في تأليفه ثلث
قرن كامل ، وتم الكتاب كله في
عشرة أجزاء لا تقل صفحاتها عن
سبعة آلاف صفحة ، ولم ينته من
أجزائه الأخيرة حتى بدأله أن يعيد
النظر في بعض الآراء التي ظهرت في
الأجزاء الأولى ، ولكن المهمة
شاقة والتكاليف كثيرة ، فتبرع له

ماضى الإنسانية مسافة شاسعة .
بعيدة الآماد والأطراف . سواء
حسبناها بالأيام أو بالأماكن .
بالانفس أو بالأوراق المكتوبة
عنها . لن يكون الحساب إلا بالملايين
وأضعاف الملايين .

ولكننا نحسب مع هذا أنها
على اتساعها وامتدادها ، قابلة
للتلخيص في سطرين ، إذا كان لها
معنى .

فإذا كانت حياة الإنسانية عبثاً ،
ولم يكن لها وجهة ولا نظام .
فذلك مما يقال في سطر واحد .

وإذا كانت ذات وجهة منظمة
فهذه الوجهة تتلخص في فكرة كبيرة
وهذه الفكرة الكبيرة توضع في
كلمات معدودات . ولو بالعنوان .
هذه المحاولة هي التي حاولها عالم

بعض المعاهد العلمية بالنفقة اللازمة
للسياحة في مواطن الحضارات
الدائرة والاقامة حيث تلزم الاقامة
زمناً بين آثار المكسيك والشرقين
الأقصى والأدنى ، ولا تنتهي هذه
السياحات التاريخية قبل سفتين من
ظهور آخر جزء في الكتاب .

مجهود من مجهودات الجبارة
وعلم واسع يؤهل صاحبه للحكم على
دلالة التاريخ الانساني من مبتدئه إلى
عصره الحاضر ، أو يؤهله
لاستخراج الوجهة المرتسمة من
حوادث التاريخ ثم استخراج
الفكرة التي تتجلى فيه عصرًا بعد
عصر وحضارة بعد حضارة ونزاعاً
بعد نزاع وسلاماً بعد سلام . وهذا
هو الذي سميناه تلخيص التاريخ
الانساني في سطر أو سطرين .
فما هي الفكرة التي يانخصها السطر
والسطران في رأى هذا المؤرخ
الكبير ؟ ما هو الرأى الذي يراه في
تاريخ الانسانية أحق علماء التاريخ
بإبداء هذا الرأى في القرن
العشرين .
خلاصة هذا الرأى سطر واحد

وهو : أن التاريخ هو طريق
الانسانية إلى الله ،

هذا هو الاجمال الذي شرحه
المؤرخ الكبير في سبعة آلاف
صفحة وقرر في ذلك الشرح أن
تواريخ الأمم والحضارات والعقائد
والاخلاق لا معنى له إن لم يكن
معناه هداية النفس الانسانية إلى
حرية الضمير برعاية الاله .

فكل أمة ، وكل حضارة ، وكل
عقيدة . فإنما تأتي لترفع في الطريق
مصباحاً صغيراً أو كبيراً ينير
الطريق وينير ساحة الكون كله
للعلم بحقائق الوجود ، أو للعلم
بحقيقة الحقائق وهي مصدر الخلق
والتدبير في الوجود .

ومن تقارير المؤرخ الكبير
أن الانسان قد يصطنع الأعمال
والحرف ويخلق العلوم والمعارف
ولكنه لا يخلق عقيدته الدينية بل
تأتيه العقيدة مفروضة على سريره
وشعوره ، قابلة للبحث في بعض
جوانبها غير قابلة لشيء سوى
التسليم في جوانبها الكبرى ، ولهذا
تسخره العقيدة ولا يسخرها كما

يهوى ، وان خيل إليه أنه يعمل في
تسخيرها بهواه .

وضرب المثل لذلك بعقيدة الاسلام :
أراد الفرس الذين دخلوا الاسلام أن
يستخدموها في احياء القومية الفارسية
فاستخدمتهم هي في توطيدها
ودراسة معارفها ، وجاء المغول إلى
بلادها من أقصى الشرق ليقيموا
سلطنتهم ، على أركانها فأعجبوا
حراسا لتلك الأركان ، ولايتأتى تسخير
عقيدة أقوى منها وأحق بالعمل في
تاريخ الإنسانية ، فليس أقوى من
الايمان على تسيير الانسان والارتقاء
به على معارج الحضارة في طريقه
إلى الله .

وعند العلامة « توينبي » أن هذه
المهمة الأبدية مهمة « تعاون » بين
الحضارات والعقائد ، يؤدي كل منها
بعض الواجب لتحقيق الواجب كله في
النهاية ، ولكن هذا الواجب الكبير
يكبر مع الزمن كلما كبر الانسان ،
فلا يزال الانسان في سعي متواصل ،
ولا يزال متطلعا إلى الكمال .

وستأتى القرون بعد القرن العشرين
فلا تذكر منه أنه قرن الصناعة الكبرى
ولأنه قرن الطيارة وعجائب المخترعات
.. كلا .. بل لا تذكر منه أنه قرن

الذرة والقذيفة الذرية . وإنما تذكر
أنه القرن الذي أصبحت فيه الدعوة
إلى « الاخوة الانسانية » موضوعا من
موضوعات العلم والعمل ، وبرناجا من
البرامج الواقعية التي يتعاون عليها
الأقوياء والضعفاء ، ولا يستغنى فيها
قوى عن ضعيف .

هذه هي أمانة الماضي لدى القرن
العشرين في رأى مؤرخ القرون
والأجيال ، فما هي أمانة القرن العشرين
يا ترى لدى القرن الحادى والعشرين
أو الثانى والعشرين أو ما يلى من
القرون ؟

هل جاء القرن العشرون يا ترى
ليحمل لها الهلاك والدمار في قذائفه
الذرية أو جاء لها بمصير أكرم وأسلم
من هذا المصير ؟

وهنا ننقل من ماضى الإنسانية
إلى مصيرها ..

ننتقل إلى المصير بمنزلة السرعة التي
انتقلنا بها — مع العلامة توينبي — في
مواضى الإنسانية جميعا إلى وجهتها
المرسومة .

ولكننا لا ننقل الآن في صحبة
توينبي ودراسته التاريخية . بل ننقل
بين الحاضر والمصير في صحبة المئات من
المقائلين الحائرين ، وان العلماء بين
الحائرين لاكثر من الجهلاء ، وان

الحكام لا أكثر من الحق .

وزيادة ، من قذيفة هيروشيما .

مئات من الناس يتساملون اليوم :

ما مصير الانسانية ؟

وكلما حدث حادث في كتلة الشرق
أو كتلة الغرب عادوا إلى السؤال
المتكرر المتحير : ما مصير الإنسانية .

هل تنفجر براكين الحرب العالمية ؟

وإذا انفجرت هذه البراكين فهل

يستخدمون فيها القذائف الذرية ؟

وإذا استخدموا فيها هذه القذائف

الجهنمية فماتتيتها بالنظر إلى المنهزمين ؟

وما نتيجتها بالنظر إلى المنتصرين ؟

وما نتيجتها بالنظر إلى سائر الأمم التي

لا تحسب مع هؤلاء ولا مع هؤلاء ؟

بل يتسامل المتساملون المتحيرون :

هل يكون في تلك الحرب المروية

منتصر ومنهزم ؟ وهل تبقى من الدنيا

بقية تساوى من النصر وتكافئ وبال

الهيمنة ؟

ويحق للتسائل العالم قبل الجاهل ،

والحكيم قبل اللاحق ، أن يحار في

العاقبة وأن يفزع من المصير .

فن المتفق عليه أن قذيفة هيروشيما

تعد سلاحاً موقناً بالقياس إلى القذائف

المجهزة للاستعمال في الوقت الحاضر .

فإن لم تكن هذه القذائف مجهزة فعلاً

في الإمكان أن تجهز القذيفة التي تساوى

في قوتها خمسة وعشرين ألف ضعف

ومن المتفق عليه أن أخطار القذيفة

الجهنمية لا تنحصر في موضعها ، ولا

في المقصودين بها ، لأنها ترسل في

الهواء ذرات من القوة الإشعاعية

تعود فتتجدد إلى الأرض غباراً صاعقاً

لا يبقى ولا يذر .

ومن المتفق عليه أن مجال الاختراع

متسع متجدد ، وأن القذيفة الهيدروجينية

ستتبعها أنواع شتى من القذائف ، وأن

استخدام العناصر الأخرى في توليد

الطاقة الذرية قد يتيسر غداً لأمم كثيرة

ولن يكون استخدام هذه الطاقة

مقصوراً على عنصرين أو ثلاثة . .

ويومئذ تقل تكاليف القذائف وتوسع

مياذنها وتتفاقم أخطارها ، وتصبح

القذيفة الموجودة اليوم كأنها سلاح

الأمس بالنسبة إلى أسلحة القرن

العشرين .

ما مصير الانسانية بعد هذه النذر

والأراجيف ؟

لا فائدة من منع السلاح ، بل الفائدة

المرجوة كلها معلقة في رأى الخبراء على

منع الحرب بأنواعها ، أو منع الحرب

بكل ما يستطيع .

فهل منع الحرب العالمية مما يستطيع !

وإذا لم يكن مستطاعاً فهل يستطيع منع السلاح

الذرى وتحريم القذائف الذرية في جميع
الميادين !

ان سوابق الدول في الحروب لا
تبشر بالخير ، ولكن سابقة واحدة
يرجى أن تبعث التفاؤل في نفوس
طلاب الخير ، وهى تحريم الغازات
السامة وإجماع الدول على اجتنابها في
الحرب الأخيرة . فاذا كانت الدول
المقاتلة قد فهمت أن الغازات الخائفة
خطر لا يؤمن فهى أخرى أن تفهم
الخطر الأكبر ، وأن تحرص على
اجتنابه حرصاً أشد وأبقى من حرصها
على اجتناب تلك الغازات .

وعبرة أخرى قد تميل بالدول إلى
الحذر من الحروب ، وهى خسارة
المنتصرين في الحروب واضطرارهم إلى
معونة المهزمين والمنكوبين ، فى عالم
متشابك متضامن ، لا ينفرد فيه بالضرر
صاحب قوة أو صاحب مال .

ونكاد نقول أن سياسة الدول
يدفعون بالأمم إلى الانتحار إذا
أقدموا على الحرب العالمية واستخدموا
فيها القذائف الذرية . ومتى استطاع
سياسة الأمم أن يدفعوا بها إلى الانتحار
فهم والأمم التى تطيعهم أهل للهلاك
والدمار .

إن الصورة التى تتمثل لنا أبشع من

أن تصورها قياساً على ما عرفناه من
كوارث الماضى والحاضر . ونكاد
تخرج بنا من حيز الواقع إلى حيز
الخيال المستحيل ، ولو أن صورة
تستحيل فى العقل لفسرط بشاعتها
لاستحالت هذه الصورة المنكرة ،
ولكن البشاعة المفرطة لا تمنع شيئاً
أن يكون إذا كان وقوعه من الممكنات
وكل ما لدينا من اسباب الظمأنينة أن
تقارن بين المصيرين أيهما أقرب إلى
الإمكان : مصير الانسانية إلى الانتحار
أو مصيرها إلى التغلب على قوة السلاح
بقوة الحكمة وقوة الأخلاق مجتمعين .

ومن حسن الرجاء وحسن التقدير
معنا أن نرجح المصير المأمون على
المصير المخدور .

إن المادة الصماء لم تخلق الإنسان .
لأن الشئ لا يخلق ما هو أحسن منه
وأكمل . فلنعد إلى خلاصة التاريخ
الإنسانى متفائلين : ان التاريخ الإنسانى
كما قال أكبر المؤرخين العصريين —
انما هو طريق الانسانية إلى الله . وفى
هذا الطريق يستطيع العقل أن يخلق
اخترعاً من جنس القذيفة الذرية
يقاومها ويكبح شرورها ويستبقى
منافعها ، ويستطيع العقل أن يأخذ
بزماء المادة وعناصرها ليقتررب بها
إلى الله .